

لو أيدت لأكلنى !!

١

كان أبو الحكم بن هشام ، مرهوب الجانب ، عظيم المكانة ، ساهى
المنزلة ، رفيع القدر بين قومه من قريش ، يعظمونه إذا رأوه ، وله فيهم
كلمة مسموعة ، ورأى مطاع .

وكان أكثرهم إيذاء للرسول الجديد ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه
وسلم ، وأشدهم إعناتاً له ، وإثقالاً عليه ، وسخرية به ، وكأما يجد لذة
في هذا الإيذاء الشديد ، ومتعة في التنكيل به ، والتجرح بمن اتبعه
من المؤمنين ...

وكانت قريش عن بكرة أبيها ، تعرف هذا ولا تتكره عليه ،
ولا توقفه عند حده من الطغيان الجائر ، والاعتداء الآثم ، والظلم المبين ،
بل تشجعه وتعاونه ، وتشترك معه في العدوان ، وتطلب منه المزيد ،
والافتنان في سبيل الإرهاق ، والإيذاء والتعذيب ... !!

كان يؤلهم ويضنيهم ما يهتف به عليه الصلاة والسلام ، من توحيد
الله ، والاعتراف له بالربوبية دون سواه ، وأن هذه الآلهة المتعددة شرك
وضلال مبين ، وإنكار للعقل الإنساني ، وحجر على التفكير البشري ، الذي

المتعددة ، والأصنام المتباينة ، والأوثان المختلفة ، التي إن دلت فلا تدل إلا على الجهل الفاضح ، الذي يرين على الأذهان والعقول ، ويطبع على الأفئدة والصدور ، ويحجبها عن الخير الواضح ، والطريق اللائح ، والصراط المستقيم ! .

ويل لهذه الإنسانية المعذبة ، التي لا ترقى إلى الخير ، ولا تهدف إلى ما يفيدها في الدنيا والآخرة ؛ إلا بعد أن يغلب عليها الشر المساحق ، ويستبد بها الظلم الصارخ ، فتظل تائهة حائرة ، شريفة ضالة ، حتى يؤذن لها أن تدرك ما في الدين من خير وهدى وصلاح ! ...

وكان صلوات الله وسلامه عليه جالساً ذات يوم ؛ وجماعة من قریش بينهم أبو جهل بن هشام ، يجلسون قريباً منه ، ويرشقونه من حين إلى حين بالألفاظ الجارحة ، كأنها السهام المارقة المريشة تصل إليه ، فلا تشنيه عن عزمه ، بل تزيده استمساكاً بالحق ، واعتزازاً بالعقيدة ، وتفانياً في الدعوة وانتصاراً للدين ! .

غير أن بعضهم لم يكتف باللفظ الجارح ؛ بل أخذ يقذفه بالخصي ، إمعاناً في السخرية ، وتفناً في الإيذاء ، وتندراً بالعقيدة الجديدة ، والدين الجديد .

وما أقسى هذا على نفس الرسول الكريم ، وبخاصة وأن هؤلاء المشركين الكافرين ، ليس لهم من الشجاعة والقوة ، ما يجابهون به الحق ، أو يقاومون به العقيدة السامية ، إلا حيث يجتمعون ، ويشعرون بالقوة الغامرة ، والشجاعة الدايقة ، وتأخذهم العزة بالإثم ، فتغلى صراخهم ،

وتشتعل نارهم ، ويمعنون في الزور والبهتان ، لا ينهائم دين ، ولا يثنيهم
وازع ، ولا يردعهم ضمير ! .

أما حيث يكون كل منهم فريداً وحيداً ، فلا يكاد يعلن شيئاً من
هذه السخرية ! أو لوناً من ألوان الاستهزاء ، أو يظهر ضرباً من ضروب
العداوة ، لأنه مهم! قوى ، فحجة الدين الإسلامي أقوى منه ، ومهما بلغت به
الشجاعة ، فإنه يتضاءل أمام الحق الغالب .

أما حين يجتمع بغيره ؛ فكأنما الشيطان ينفخ في أوداجه ، ويمشي
في عروقه ، ويصرخ في أذنيه ، فساداً وكبراً ، وضلالاً مبيناً .

٢

وبيناهم على هذه الحال ، أقبل رجل من قبيلة أراش ، إلى مكة ،
ومعه إبل يعرضها للبيع ؛ ويرغب الناس فيها .

وأقبل المشترون من كل حدب وصوب ، وقال كل واحد كلمته ،
ولكن أبا جهل بن هشام ابتاع هذه الإبل كلها ؛ بثمان مرتفع .

فرح الأراشي بهذه الصفقة ، ورأى أنه ربح فيها ربحاً لا بأس به ،
وأن الثمن سيأخذه عما قريب ، فأبو الحكم رجل من أكابر قريش .
ولا يمكن بحال من الأحوال أن يمارى في الحق ، أو ينتقص منه شيئاً
وعما قريب حيناً ينتهى الأجل المضروب ، والمدة المحدودة ، سيأخذ حقه
كاملاً غير منقوص ... وإنه لشرف أن يكون أبو الحكم مديناً له ...

وإنه لشرف أن يعامل أبا الحكم ، أحد رءوس قريش السامية المكنانة ،
والرفيعة المنزلة ، والتي لها بين العالمين ذكر وشهرة وصيت ... !! .

ولم يكن أبو جهل حينما رفع الثمن وأخذ الإبل ؛ بالرجل الشريف
النفس ، الذي ينوى الخير ، ويقصد السداد ، ولكنه كان متتويماً أن
يماطل في الحق ، وأن يطيل المدة إلى أبعد حد ، وأن ينكر هذا الثمن إذا
وسعه الإنكار ...

وكان يعتقد أن أحداً لا يمكن بحال من الأحوال أن يكرهه على
دفع الثمن ؛ لأنه كبير القوم ، ومحال أن يقف أحد في سبيل إرادته
ورغباته ... بل على العكس سيساعده كل واحد ممن حوله على
ما يريد ، إن حقاً وإن باطلاً . وليس أدل على هذا من اتباعهم له بصدد
هذا الدين الجديد ، فكلمهم يقر بينهم وبين نفسه بصدق محمد ، وصدق
رسالته ، ولكنهم حينما يجتمعون به ينكرون هذا ويكذبونه ، ويذيعون الشر
والفساد ، ويقاومون هذه الفئة المسامة القليلة ، التي يرون فيها الضعف
والخور ، ويعتقدون أنها لن ترفع صوتاً بحق أمام باطلهم .

وعلى هذا وطّد العزم ، واستراح إلى ذلك الرأي غير آبهٍ بشيء .

وأقبل الأراشي يطلب حقه من أبي جهل ، ولكنه ماطله ، وراوغه ،
وبدا في حديثه الطمع والأنانية .

وشعر الأراشى بأنه وحيد غريب ، وأنه لو أغاظ على أبي جهل لما
نال منه حقه ، ولا حصل على أثمان إبلة ، فماذا يفعل ؟!

لقد شعر بالوحدة والانفراد، وأنه لو كان في قبيلته لأمكنه أن يخاطب
أبا جهل بالشدة ، ويطلب منه حقه ؛ بل ويكرهه على أدائه ، ويرغمه
على دفع أثمان ما ابتاع منه .

عليه أن يلين معه إذن حتى يحصل على حقه ، وهذا هو الطريق
الوحيد ، وإلا فسيضيع عليه هذا الحق .

وعبثاً حاول أن يقنع أبا جهل بوجهة نظره .. لقد كاد يقولها أبو جهل
علانية ، وكاد ينكر حقه إنكاراً ، ولكنه أنف أن يقولها ، فمطل ،
ومطل ، واستمرراً ذلك المطال ...

ولما يشأ الأراشى أن يضيع الوقت عبثاً لا طائل تحته ، ولا خير
يرتجى منه ، ففكر في حيلة تنفذه من هذه الورطة ، وأخيراً اعتزم أمراً .
هو يعتقد أن الأمر الذي اعتزمه فيه جرأة أكثر مما يجب ، وأنه
مجازفة ، قد لا يصل إلى شيء من حقه من ورائها ، وربما أضاعت عليه
حقه كله ، ولكنه اعتقد أيضاً أنها إذا نجحت فسيحصل على حقه كله
في أسرع وقت ، وخير له ألف مرة ومرة أن يعلنها ثورة على هذا الطاغية
تهدم كبرياءه ، وتحارب غروره ، وتكشف أمره للناس ، وتوقفهم على
دخيلة نفسه الآئمة ، وتخرق ذلك الطبل الأجوف ؛ الذي ليس له إلا

ومضى الرجل إلى حيث يجتمع القوم ، ويأخذون مجلسهم دائماً ،
يتحدثون ويتناقشون ، يشملهم جميعاً الفرح والمرح ، ويرشقون محمداً بين
حين وآخر بما تسوَّله لهم نفوسهم دون خوف من الله ، ولا استماع
لصوت الضمير !! .

٤

وهناك بجانب المسجد الحرام ؛ ارتفع صوت ناغم نائر ؛ يطالب بحقه
ويستصرخ القوم ويستغيث بهم :

— يا معشر قريش !! .

— ماذا تريد يا رجل ؟!

— من يؤدبني على أبي الحكم ؛ ويعينني عليه حتى آخذ حقي منه ؟ .

— أتريد أبا الحكم بن هشام ؟ .

— أجل إنه هو ... وإني رجل غريب ، ابن سبيل وقد غلبني

على حقي .

وصمت الرجل ، بعد ما أعلن الحرب ، وعرض الفضيحة ، وانتظر

حتى يسمع الحكم الذي يرجو أن يكون إنصافاً له من هذا الطاغية ،

الذي لم يخش رباً ، ولم يرع للحق حرمة .

وتلاقت أنظار المشركين ، ورأوا في هذا مادة للتندر ، والسخرية

بمحمد ، والاستهزاء به ، فقالوا للرجل في عبارات ساخرة تهكمية :

— أترى ذلك الجالس هناك ؟ .

وأشاروا له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الرجل :

— نعم ...

— اذهب إليه ، فإنه يؤدبك عليه ، ويعينك على أخذ حَقِّك منه .
ومضى الأراشي إلى رسول الله ؛ وانطلقت فحكاتهم ترنّ في الفضاء ؛
لأنهم يعلمون ما بين محمد وبين أبي جهل ، من العداوة والبغضاء ، وأنه
لا يجسر أن يخاطبه في شيء من هذا القبيل ؛ وإلا اشتد إيداؤه له ،
وسخريته به .

٥

ورأى الأراشي نوراً يتلألأ فوق جبين هذا الرجل ؛ واطمأن إلى هذه
الروح الرقراقة السامية ، وأحسّ بانسراح الصدر قبل أن يخاطبه بكلمة
واحدة ؛ فعلم أن القوم حقيقة دلوه على خيرهم ، وأقدرهم على مساعدته
وإعانتته على أبي جهل الطاغية الظلوم .

قال له في أدب وإجلال :

— يا عبد الله ، إن أبا الحكم بن هشام ، قد غلبني على حق لي قبلكه ،
وأنا غريب ابن سبيل ، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يُؤدبني عليه ،
ويعينني على أخذ حق منه ، فأشاروا إليك ؛ فنخذ لي حق منه ،
يرحمك الله .

وفهم الرسول صلى الله عليه وسلم كل شيء ؛ علم أن القوم أمعنوا في
السخرية والتنكيل به ، وأنهم يعتبرونه ضعيفا قليل حيلة ، وأن أبا جهل

ليشتد ما بينهما من عداوة . وأنهم يعتقدون ، أن أبا جهل قوى غالب ؛
وأن أحداً لا يمكنه أن يقف في سبيله مهما كان .

فهم ذلك ، ولكنه علم أن هذا الرجل مظلوم مثله سواء بسواء ، وأنه
فريسة أبي الحكم ، وأنه غريب ضعيف ، يتحرق إلى الناصر والمعين ،
ويناشد أهل المروءة والعزة والكرامة ، وأن أحداً من هؤلاء لا يمكن أن
يعينه على أبي جهل ، كائناً ما كان الأمر ، فأبو جهل كبيرهم ، وقائدهم إلى
الشر والفساد . . وأبو جهل رسول إبليس وكبير جنده وأعوانه . . فكيف
إذن ينصر هذا الرجل ؟ .

وفكر الرسول الكريم في الأمر ، ولكنه كما دته دائماً شجاع قوى
الإرادة ، لا يخشى إلا الله ، ولا يخاف من مخلوق بالغاً ما بلغ ، لقد وقف
أمام العالم كله ، يسفه عقائده ، ويحطم أصنامه ، ولم يجبن في وقت ما ،
فكيف به ينكص عن مناصرة هذا المظلوم ، الذي التجأ إليه ،
ولاذ بحماه ؟ ! .

سيبذل أقصى ما يمكنه بذله ، سيذهب إلى أبي جهل في بيته ،
سيدخل عليه وكره ، ويهاجمه في عرينه الذي يربض فيه ، كما يربض
الوحش المفترس ، لا يخشى شيئاً ولا يخاف من إنسان . . .

حقاً إنه ضعيف ، ولكنه قوى بالله ، وإنهم أقوياء ، ولكنهم ضعفاء

بباطلهم المتخاذل ، وإثمهم المبين .

قال للرجل في عزم وقوة :

— سَأَنْطَلِقُ إِلَيْهِ !! .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأراشي ؛ ومرّ بالقوم ،
أتباع أبي جهل وأعوانه ، وأحابه وأنصاره .

لقد أخذ عليهم الدهش والعجب كل سبيل ، فما كانوا ينتظرون أن
يروا محمداً يطيع الرجل ؛ ويأخذ بناصره ، ويذهب معه إلى أبي جهل .
وفي أي مكان ، في بيته .. في عرينه .. يهاجمه في عرينه ؟ ! هذا
كثير ، إنها لجرأة ، وإنها لمغامرة ، وإن محمداً لن ينجو من شر أبي جهل
هذه المرة ، وإن نجا من شره قبل ذلك مرات ومرات ... إن أبا جهل
ستأخذه العزة بالإثم ، ويبطش بمحمد ؛ لأنه يتدخل في شئونه الخاصة ،
ويجرؤ على ما لم يجرؤ عليه إنسان ما .

وقال فريق منهم :

— إن محمداً شجاع .

وقال فريق آخر :

— إنه مجنون .. إنه ذاهب إلى حتفه .

ولكنهم جميعاً شعروا بأنهم السبب في إثارة عواطفه ، وتحريك
عوامل الرحمة والشفقة من نفسه ، حينما قالوا الأراشي ما قالوا ، وإذا
أصابه مكروه ، فإثمهم السبب في ذلك دون ريبة ولا شك .

منهم ، عربى قرشى ، وهو أمين صادق . بيد أن عداوته لأصنامهم ،
ونيله من عقائدهم حوّل هذا الشعور سريعاً إلى نقمة وكرهية ، وسخرية
واستهزاء ، فقالوا لرجل منهم :
— اتبعه ، انظر ماذا يصنع؟

٧

انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي جهل ، ومعه
الأراشى ، وخلفهما القرشى يتبعهما من بعيد ، يراها ولا يريانه . وضرب
على أبي جهل بابه ، فارتفع الصوت جافاً غليظاً :
— من الطارق ؟ .

— مُحَمَّدٌ فَأَخْرِجْهُ إِلَىَّ .

وكأنما أذهبت المفاجأة عقل أبي جهل ، وأطارت نفسه شعاعاً ،
وهدمت أعصابه ، فخرج مضطرباً ملتاغاً ، حائل اللون ، مكفهراً الوجه ؛
لا يكاد يتسكك من شدة الخوف والرهبة والاضطراب .. محمد .. ولماذا
جاءنى فى هذا الوقت ؟! وما الداعى إلى هذه الزيارة التى لن تكون
خيراً أبداً ؟ .

وظل صامتاً لا يقوى على النطق ، وكأنما أرتج عليه غبار ماذا يقول ؟ .

وقال الرسول الكريم فى عزم وإباء وقوة :

— أَعْطِ هَذَا الرَّجُلَ حَقَّهُ .

ولم يجد أبو جهل بدءاً من الرضوخ لهذا الأمر النافذ ، الذى لا يقبل التأجيل ، فقال على الفور فى خوف ووجل ، وحيرة واضطراب :
— نعم ؛ لا تبرح حتى أعطيه الذى له .

ودخل داره ، وغاب قليلاً ، ثم خرج إليه بحق الرجل ، فدفعه إليه ، وهو لا يزال خائفاً مضطرباً .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حمد الله سبحانه وتعالى على هذا النصر المبين . وقال للأراشى :

— أَلْحَقْ بِشَأْنِكَ .

ومضى كل إلى سبيله .

٨

ولم يشأ الأراشى أن يمضى هكذا دون أن يشكر هؤلاء الذين دأبوا على الرجل العظيم الذى أعانه على أبى جهل الطاغية وأخذ له حقه منه . . .
ففى طبيعة العرب وفاء وعرفان للجميل ، واعتراف بالحق . .

فأقبل حتى وقف على ذلك المجلس ، وكان جميع من فيه ينتظرون النتيجة ، وقد أعمل كل منهم خياله فى الموضوع ، وجسم الحادثة تجسيماً خرج بها عن الحق ، وباعد بينها وبين الواقع مسافات بعيدة . .

فلم يكن واحد منهم ليتصور أن محمداً سيأخذ الحق من أبى جهل

أن أبا جهل سيؤذي محمداً ، ويسخر منه ، وسيرى الرجل هذا الإيذاء ،
وتلك الإهانة ، فيقع مالا محمد عقباه . .

وما كادوا يرون الأراشي ، وفي عينيه فرحة غامرة ، وسرور عظيم ،
حتى أخذوا جميعاً ، وتملكهم العجب ، وسيطرت عليهم الدهشة ، وغلبتهم
الحيرة والذهول . .

قال الأراشي في لهجة معبرة تفيض بالشكر والامتنان :

— جزاه الله خيراً ، فقد أخذ لي حقي . .

أخذ له حقه ! ! ! . . أخذ له حقه ! !

ما هذا الكلام ؟ !

وتتابعت النظرات متلاشية في سرعة ودهشة وحيرة ، فما كانوا

ينتظرون هذه النتيجة ، وكيف حدث هذا ؟ !

ماذا جرى لأبي جهل ؟ كيف استمع إلى محمد وأجاب طلبه ، وهم

يعامون ما بينهما من عداوة وبغضاء ؟ !

إن هذا شيء عجيب . . إن الرجل لا بد وأن يكون كاذباً . . إنه

قد انهزم انهزماً خشياً أن يعلنه أمامهم ؛ لئلا يسخروا منه ومن محمد ، وقد

يئس بطبيعة الحال من أخذ ماله ، فقال هذا الكلام . .

ولكن ما الداعي لأن يقول هذا ، وفي مكنته أن يفضح أبا جهل على

الأقل ، ويعلنها عليه ثورة ماحقة ، إن لم يكن نتيجتها نيله حقه كاملاً ،

فيكفّيه تأليب الناس عليه . وفضيحتهم بينهم ، فلا يعامله أحد بعد ذلك ؟ ! .

إن الأمر أخطر من هذا كله ، إنه غير ما يتصورون ، ولا شك أنهم سيعامون جليلة الأمر عند ما يقبل صاحبهم ، اعتقاداً أن النتيجة لن تكون كما قال الرجل الأراشي بحال من الأحوال ، وإلا فمعنى هذا أن أبا جهل أصبح خائفاً من محمد ، ولن يقاومه بعد ذلك أبداً ، بل سيكون من أتباعه وأنصاره . . ومعنى ذلك أن جميع الخطط التي وضعوها لمقاومته ، ومقاومة دينه الذي جاء به ، ستحبط على طول الخط ، وامتداد الطريق . . !
ويلاك يا أبا جهل إن كان ما يقوله الرجل حقاً ، لن تقوم لك قائمة بعد ذلك ، ولن يصيخ لقولك إنسان منا بعد هذا أبداً . .

٩

وما كاد صاحبهم الذي انطلق في أثر محمد يلوح من بعيد ، حتى اتجهت إليه الأنظار ، وقالوا له بلهفة وسرعة :
— ويحك !! ماذا رأيت ؟ !
قال في حزن بالغ ، وتأثر كبير :
— عجباً من العجب ، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه ، فخرج إليه ، وما معه روحه . . فقال له : أعط هذا حقه ، فقال : نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه ، فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه . .
ووجم القوم ، وملاهم الغيظ والهلم ، وعلموا أن الرجل كان صادقاً حينما قال ذلك . ودعا لمحمد بالرحمة وخير الجزاء . .

في القبائل حينما يقص قصته ، وسينالهم كثير من اللوم والتعنيف ،
وستكون سيرتهم مضغة في الأفواه ، يلوكها هذا و يلوكها ذاك ، ويصبحون
عرضة للقتل والقتال . . .

لا بد أن يرسلوا إلى أبي جهل من يأتي به ، ويخاطبونه في هذا الأمر
فلا يجدر بهم الصمت ، ولا يليق بهم السكوت عليه .

بأي عذر سيعتذر؟ أيقول: أردت مجاملة الرجل وإعطاءه حقه ، إذن
فماذا مطاله ، ولم يعطه الحق في وقته؟ ولماذا لم يعطه له إلا أمام محمد؟ إذن
فهو يرعى جانب محمد إلى حد كبير ، وهو يمالئه ويتواطأ معه ، ويتظاهر
أمامهم بحريه وإيدائه . . .

إنهم سيعرضون الأمر عليه ، ويدعون له لنفسه يفرض الجزاء كما يرى
ويحب ، ويوقع على نفسه العقوبة التي يرتضيها . ولن يتدخل أحد في ذلك
أبدا ، ليكون هذا ادعى إلى النكالية ، وأمعن في اللوم والتأنيب . . .

وكادوا يطهرون فرحا وسرورا ، حينما رأوا أبا جهل يقبل عليهم ،
مكفهر الوجه ، مضطرب الفؤاد . . .

١٠

- ويلك ! مالك ! ! والله ما رأينا مثل ما صنعت قط . . .

وعجب أبو جهل كيف يجابه بهذا القول العنيف ، وعلى هذه الصورة
النكراء ، فكاد يثور ويهيج ، لولا أنه تمالك نفسه ، وعلم أنه مخطيء
دون ريب في نظرهم ؛ لأنهم لا يعرفون الحقيقة ، ولم يدركوا الواقع كما هو . . .

فقال في صوت هادئ ، كله الأسي والحزن :

— ويحكم !! والله ما هو إلا أن ضرب على بابي وسمعت صوته
فلئت منه رعبا ..

— ملئت منه رعبا ؟ ما عهدناك جبانا ، ولا خواراً ، ولا رعبيداً
فكيف تخشاه ، وبخاصة وقد علمت أنه هو الذي طالما سخرت منه
وهزأت به ؟ !

— ليس لي دخل في هذا ، فهو شعور طبيعي تملكني بلا تفكير
ولا تدبير ، وأخذ على كل مسلك وطريق ..

— ثم ماذا ؟

— ثم خرجت إليه ..

— وماذا رأيت ؟ رأيته يحمل سهاما وحرابا ؟ أم خناجر ومُدَى
وسيوفاً ، أم معه الجيش اللجب والخيول المطهمة ، والفرسان الذين لا قبيل
لك بهم ، ولا قدرة لك عليهم ؟ !

— دعوا هذا ، وكفى سخرية ، فلورأيتم ما رأيت لما كان واحد منكم
على قيد الحياة ، ينشق نسيمها ، ويتمتع بما فيها من نعم وخبور .. ! !

— إذن ماذا رأيت ؟ ..

— رأيتُ فوق رأسه فحلام من الإبل ، ما رأيت مثل هامته ،

ولا عنقه ، ولا أنيابه لفحل قط ..

ووضع نفسه هذا الوضع ، فأحس بالقشعريرة تتملكه وتسيطر عليه ، وعلم أنه لا يتوانى عن فعل ما يطلب منه كأننا ما كان ..

وقال قائل في لهفة !

— ثم ماذا ؟

— ثم خيل إلى ، بل تيقنت تمام اليقين أنني مغلوب على أمرى ، وأنه لا بد وأن أدفع للرجل ثمن إبله ، وأعطيه حقه بلا مطل ..

وصمت قايلا ، ثم قال :

— والله لو أبيت لأكفى ... !!